استيعاب الأسلوب البلاغي القديم للأطر اللسانية الحديثة

الدكتور عبد الكريم حسين رعدان - أستاذ مساعد في البلاغة والنقد

بقسم اللغة العربية - كلية التربية – سقطرى

جامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا – اليمـــــن

مدخل :

يرى المتابع أن العديد من الباحثين اليوم قد توجهوا في أبحاثهم ودراساتهم نحو فرعيات وجزئيات حديثة معاصرة لشاعر ما أو حول نص ما في مجالات اللغة والبلاغة والنقد وفي اللسانيات بشكل عام، ويقابله عزوف لدى الكثير أيضا عن دراسة التراث البلاغي القديم ونصوصه، وكأن الأمر قد فرغ منه، والحقيقة أن هذا التراث لا يزال يزخر بالإبداع؛ ينتظر دراسات متعمقة، وقراءات فاعلة، تكشف خصائصه وروائعه، التي لم تنته بعد.

فالأسلوب البلاغي القديم يحتاج إلى بحث وتدقيق أكثر في ما لدينا من مخزون معرفي، ويمكن أن تستقرأ أراء العلماء ونقاشاتهم حول قضايا الإعجاز، وعلوم البلاغة الثلاثة؛ البيان والمعاني والبديع، وحتى في علوم النحو واللغة وكتب التراث الأدبي عموما، كالتي لدى الجاحظ وابن سلام، وابن المعتز وقدامة بن جعفر وابن رشيق، وعبد القاهر الجرجاني والزمخشري والسكاكي والعلوي وابن خلدون وإخوان الصفاء وغيرهم، فيمكن أن يشكل ما أنجزه هؤلاء وأمثالهم - بعد صياغته وتنظيمه - نظرية متكاملة، تستوعب كافة الأطر الأسلوبية والنقدية واللسانيات الحديثة، وتصبح منفذا لدراسة الفنون الأدبية شعرا ونثرا وفق المستويات الصوتية والبنائية والدلالية والجمالية.

فتسعى هذه الورقة إلى التذكير فقط بهذا المجال وتشير بتواضع إلى كيفية تتبع واستقراء المادة البلاغية والرؤى الأسلوبية واللسانية التي بثت في الدراسات والمصادر المختلفة بصورة مجملة من وجهة نظر الباحث.

محاور الدراسة

يمكن أن نقسم الدراسات القديمة التي لها نقاشات حول جانب الأسلوب البلاغي إلى ثلاثة محاور.

أولا: دراسات الإعجاز وكتب التفسير:

وهي تلك الدراسات التي تمحورت حول إعجاز القرآن الكريم في جوانبه البلاغية واللغوية، ومن أهمها مجاز القرآن لأبي عبيدة، وإعجاز القرآن للباقلاني، والنكت في إعجاز القرآن للرماني، والإعجاز والإيجاز للثعالبي ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي، والتبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن لابن الزملكاني وغيرها. ويضاف إليها العديد من كتب التفسير كالكشاف للزمخشري.إذ تضمنت هذه المؤلفات محاور بلاغية وأسلوبية مهمة، فقد ركزت على تحليل بعض الآيات القرآنية بلاغيا وعددت أوجها من البيان، وذكرت أن القرآن: ((إنما كان إعجازه من أجل ما اشتمل عليه من الفصاحة والبلاغة، ولم يكن إعجازه ما اشتمل عليه من أنباء الغيب، ولا من الحكم والمواعظ وغيرها من الأوجه))[1].

كما أكدت على أن ((الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن))[2]. وفي هذه البدايات كان الدرس البلاغي مشتغلا في جانب الإعجاز بقضيتين: الأولى قضية النظم القرآني، والثانية سر تأثيره في النفوس[3].

ففي النظم القرآني دار النقاش حول كيفية اختيار القرآن للألفاظ ووضعها المتناسق المتسق المترابط في الجملة بحيث لو غيرت بلفظة أخرى لاختل المعنى تماما، وكذا اهتم علماء البحث في قضايا الإعجاز القرآني ومعهم المفسرون بجزالة اللألفاظ وصيغها، وقد يتطرقون إلى قضايا تأويلية حول دلالات بعض التراكيب، كما في لفتات الباقلاني ونظراته

---

(2) الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت لبنان 1419هـ 1998م، ص 1.

(3) انظر: أثر القرآن في تطور النقد، محمد زغلول سلام، دار المعارف ، الطبعة الثالثة [د ت] . ص 266 .

حول قوله تعالى:" أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير". آل عمران165. قال الباقلاني في قوله تعالى "إن الله على كل شيء قدير" ظاهره العموم ومعناه الخصوص لأن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على المحالات هو الموجود في مقتضى كلام العرب(1).

وفي قوله تعالى: " إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين" القصص الآية 4، يقول البلاقلاني: "هذه تشتمل على ست كلمات سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها على ما تشاهد، ورونقها على ما تعاين، وفصاحتها على ما تعرف. وهي تشتمل على جملة وتفصيل وجامعة وتفسير، ذكر العلو في الارض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء، وإذا تحكم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما، لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، والقلوب لا تقر على هذا الجور، ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد وكفت في التظليم، وردت آخر الكلام على أوله، وعطفت عجزه على صدره"(2).

فمن المثالين السابقين يمكن أن نستشف ملامح في أساليب الإقناع وتنويع الخطاب في حالات متنوعة وكيفية إدارة الكلام في العموم والخصوص والإجمال والتفصيل وتفريع المعاني من المعنى الرئيس بصورة أكثر وأشمل مما جاء في المدرسة التوليدية والتحويلية.

ثانيا: الدراسات البلاغية النقدية:

وقد ركزت على الجوانب البلاغية في القرآن والشعر والنثر، ومزجت بين البلاغة والنقد، من خلال نقاشها لعدد من العناصر في الجوانب اللفظية والمعنوية، ومن أهمها؛ البيان والتبيين للجاحظ، والبديع لابن المعتز، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، والصناعتين لأبى هلال العسكري، ومفتاح العلوم للسكاكي، والإيضاح للخطيب القزويني، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني وغيرهم، وقد أثارت

---

(1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان - الطبعة : الأولى 1413هـ. 1993م. ج1، ص591.

(2) إعجاز القرآن لأبي بكر، تحقيق: السيد أحمد صقر دار المعارف – القاهرة. ص192، 193.

هذه الدراسات قضايا نقدية في الشعر والنثر على ضوء القواعد البلاغية ومعايير معرفة جيد الأدب ومواضع الحسن والقبح.

وهناك دراسات أخرى وإن غلب عليها النقاش النقدي للأدب، إلا أن للأسلوب البلاغي فيها باعا طويلا وفي مقدمتها كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر، والشعر والشعراء لابن قتيبة، وعيار الشعر لابن طباطبا، والعمدة لابن رشيق، والموازنة للآمدي، والوساطة للقاضي الجرجاني وغيرها.

ثالثا: الجاحظ وابن جني والجرجاني وابن خلدون:

فمن السهولة بمكان القول إن كل واحد من هؤلاء العلماء مدرسة بذاته فقد وضعوا اللبنات الأولى للدراسات اللسانية والأسلوبية الحديثة من خلال آرائهم ونقاشاتهم في مؤلفاتهم العديدة. ففي علوم البيان التي جاء بها الجاحظ نجد إشارات واضحة إلى قضايا تمثل أساسيات لآراء دوسوسير، فقد جعل العلامات في اللغة المنطوقة ضمن العمل اللساني، ويعني ذلك أن: اللسان عبارة عن نسق من الدلالات التي تعبر عن المعاني[(1)]. فلا يوجد فرق في هذا مع ما جاء به الجاحظ عندما عرف البيان بأنه: ((اسم جامع لكل شي كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقة، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذاك هو البيان في ذلك الموضع))[(2)].

وهذا الإفهام اللغوي يسعى إلى تحقيق وظيفة لسانية هي الإقناع، والتواصل بين الأفراد والمجتمعات من خلال وسيلة التعبير المنطقي الواعي[(3)]. ويمكن أن تصف دراسات

---

(1) انظر: الرؤية الأسلوبية في البلاغة العربية، د. ماهر مهدي هلال، مجلة الأقلام العراقية، عدد (9) 1994م ، ص39.

(2) البيان والتبيين: أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: فوزي عطوى، دار صعب بيروت، الطبعة الأولى 1968م. ج1، ص54، 55.

(3) انظر: البلاغة العربية، حسن المودن، علامات في النقد، المجلد الرابع عشر، العدد (53) رجب 1425هـ سبتمبر 2004م، ص382.

الجرجاني ضمن الأطر الأسلوبية واللسانية الحديثة، وخاصة في دراسته للمجاز، وذلك: ((أن مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني يماثل العلامات السياقية عند علماء اللغة المعاصرة، ومفهومه للمعنى، ومعنى المعنى يماثل مفهوم العلاقات الاستبدالية))[1].أضف إلى ذلك ما ناقشه من مسائل في علاقة النحو بالصياغة وبالمعنى.

كما أن المنهج الذي جاء به ابن جني في كتابه الخصائص هو منهج لساني، وقد ركز في دراسته على جوانب بنيوية في المفردات والجمل، وعالج الكثير من المسائل الدقيقة حول الأصوات ودلالتها على المعاني، وقضايا الاشتقاق وصيغ الألفاظ وغيرها من الظواهر اللسانية.

كما أن ابن جني استطاع بمنهجه اللغوي اللساني ((أن يكتشف من ناحية عامل الزمن الذي تجلى في أن نشأة اللغة لم تتم في وقت واحد، بل بدأت ثم اكتملت في أوقات متلاحقة))[2]. كما أشار إلى تداخل اللغات في قضايا الأصوات وعلاقة اللغة بالفكر وبالمجتمع ودرس مسائل وقضايا عديدة. وقد احتوى كتاب سيبويه على رؤى صوتية مهمة حتى قيل عنه: ((إنه أول من وضع أصول علم الأصوات في العربية))[3].

ويكشف ابن الأثير العلاقات بين النحو وعلوم البلاغة وأهمية تلك العلاقات في الجوانب الدلالية فقالوا: ((إن البلاغة والنحو يشتركان في أن النحو ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي وتلك دلالة عامة، وصاحب البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة))[4]. ويتضح الأمر بصورة أكثر لدى ابن خلدون عندما ناقش هذه المسألة بقوله: ((ألا ترى أن قولهم: زيد جاءني مغاير لقولهم: جاءني زيد، من قبل أن المتقدم منها هو الأهم عند المتكلم، فمن قال جاءني زيد، أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل

(1) مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني قراءة في ضوء الأسلوبية، نصر أبو زيد، فصول، المجلد الخامس، العدد الأول (أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر) سنة 1984م، ص22.

(2) أصالة اللسان العربي، د.جعفر دك الباب. بحوث في اللغة.

(3) التطور النحوي للغة العربية: براجشتراسر، مطبعة السماح القاهرة 1929م، ص5 .

(4) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1995م، ج1، ص26.

الشخص المسند إليه، ومن قال زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند، وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام، من موصول أو مبهم أو معرفة))[1]، وهذا يشير إلى أن النحو العربي يتشابه مع كثير من المدارس اللسانية الحديثة، ويماثل ما جاء من أراء في المدرسة البنيوية والتوزيعية[2].

ومفهوم علم المعاني عند علماء البلاغة يماثل عددا من المستويات الأسلوبية، فموضوعه هو: ((تتبع خواص تراكيب الكلام، في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال وذكره))[3].

وعلم المعاني هو علم حادث في علوم العربية واللغة، وهو من العلوم اللسانية المتعلقة بالألفاظ والدلالات وأحوال المتخاطبين والفاعلين وأحوال الفعل، وغير ذلك[4]. وهذا ما تركز عليه اللسانيات في دراستها للخطاب اللغوي، حيث ((يكون موضوع علم اللسان؛ اللغة في مظهرها الأدائي، ومظهرها الإبلاغي، وأخيرا في مظهرها التواصلي))[5].

نستطيع القول إن كل تلك الدراسات السابقة في مجموعها تناولت ثلاثة مستويات رئيسة:

<u>المستوى الدلالي</u>: الذي يرصد الأبعاد الدلالية للتعبير، في دلالة اللفظ الحقيقية وتفرعها إلى مطابقة وتضمن ولزوم، ودلالة المجاز في صوره المتعددة، وأهمها التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية.

---

(1) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: أ. حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال، بيروت 1991م، ص342.

(2) انظر: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث ، د. نهاد الموسى ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان 1400هـ/ 1994م، ص 29- 40.

(3) مفتاح العلوم، للسكاكي، ص70 .

(4) انظر: مقدمة ابن خلدون، ص341.

(5) اللسانيات وأسسها المعرفية، د.عبد السلام المسدي، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري 1986م، ص81.

<u>المستوى النوعي</u>: الذي يرصد مستوى التعبير من حيث علاقاته بواقع المتلقي والظروف الخارجية، ونوعية معانيه، كالخبر والإنشاء والإسناد، والتقديم والتأخير والإيجاز والإطناب، وجميع موضوعات علم المعاني، وعدد من موضوعات النحو.

<u>المستوى الشكلي</u>: ويعنى بالجوانب الشكلية من حيث الصياغة والتراكيب، وبنية الأصوات والمفردات والجمل وعلاقاتها وهيئتها، ويدخل في هذا موضوعات علم البديع وقوانين الصرف، وعلوم اللغة؛ كالاشتقاق والنحت والإبدال والقلب وغيرها.

كما أن هذه الدراسات تضمنت قضايا أسلوبية تتعلق بالملقي والمتلقي والسياق، وكانت نظرتها في ذلك شاملة متكاملة. فبلاغة الكلام عند القدماء هي ((مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته.. وأما بلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ))[1]، وغاية البلاغة أن ((تنهي المعنى إلى قلب السامع))[2]. فمثل هذه القضايا ليست سوى إشارات إلى مستويات عامة في الأسلوب البلاغي، تتعلق بالنص وتصف مستوياته، من خلال بحثها في الجانب المحسوس للغة، وإدراك العلاقات بين اللفظ ومدلوله.

ورغم أن هذه الدراسات متداخلة وغير مرتبة منهجيا ولم تتعمق في تحليل النصوص، إلا إنها تمثل - سواء في جزئياتها أو في كلياتها - الأسس التي جاءت بها الدراسات اللسانية والأسلوبية الحديثة.

فهذه المفردات التي يمثلها التراث البلاغي والنقدي جديرة أن تفي بمتطلبات وآليات البحث والمنهج، لقراءة التراث قراءة صحيحة بدلا من ((إراقة ماء الوجه على عتبات النظريات الغربية))[3].

---

(1) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين الخطيب القزويني، مراجعة: عماد بسيوني زغلول ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1415هـ/ 1995م، ص13، 15.

(2) الصناعتين لأبي هلال العسكري، ص6.

(3) صورة المتلقي في التراث النقدي ، الحسين آيت مبارك ، مجلة جذور المجلد العاشر، ص378.

وخلاصة القول: إن دراسات العلماء القديمة وجهودهم في البلاغة والنقد وعلوم القرآن وغيرها قد أتت بأسس عامة لمختلف الجوانب اللغوية والبنائية والتراكيب والدلالات، وفي خصائص الأصوات والأساليب والوظائف النحوية، وفي السياق والقرينة، وناقشت قضايا حول الصوت والمفردة والجملة والنص، وكذا ما يتعلق بالملقي والمتلقي، وقامت بتحليل عدد كبير من النصوص القرآنية والشعرية والنثرية، كما وضعت أصولا منهجية في تحقيق الدراسات وتوثيقها ونقدها، ولا أحسب أن الدراسات الحديثة قد أتت بإنجاز جديد في علوم اللغة واللسان لم يشر إليه القدماء بوجه من الوجوه.

المصادر والمراجع :

1- أثر القرآن في تطور النقد، محمد زغلول سلام، دار المعارف ، الطبعة الثالثة [د ت].
2- إعجاز القرآن لأبي بكر، تحقيق: السيد أحمد صقر دار المعارف – القاهرة.
3- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين الخطيب القزويني، مراجعة: عماد بسيوني زغلول ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1415هـ/ 1995م.
4- البيان والتبيين: أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: فوزي عطوى، دار صعب بيروت، الطبعة الأولى 1968م.
5- التطور النحوي للغة العربية: براجشتراسر، مطبعة السماح، القاهرة 1929م.
6- الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت لبنان 1419هـ 1998م.
7- الطراز المتضمن لإسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1402هـ 1982م.
8- المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1995م.
9- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار النشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى 1413هـ. 1993م.
10- مقدمة ابن خلدون، تحقيق: أ. حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال، بيروت 1991م.

11-اللسانيات وأسسها المعرفية، د.عبد السلام المسدي، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري 1986م.

12-نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث، د. نهاد الموسى ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان 1400هـ/ 1994م.

المجلات والدوريات:

1- علامات في النقد، المجلد الرابع عشر، العدد (53) رجب 1425هـ سبتمبر 2004م.
2- فصول، المجلد الخامس، العدد الأول (أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر) سنة 1984م.
3- مجلة الأقلام العراقية، عدد (9) 1994م.
4- مجلة جذور المجلد العاشر.









